المُجتمعُ على الأهواء الشخصية

في اعترافات قناع ليوكيو ميشيما

أ. زيدان الدين محمد

zidanedin7@gmail.com

في تحدٍّ للتصنيف أو تمرّدٍ على الهيكل التقليدي للكتابة الروائية، متّبعًا بذلك النمط الأدبي الفرنسي الحداثي، يستدعي الساموراي الأديب يوكيو ميشيما أسمال تاريخه الشخصي لتقديم صورة جديدة من الاعترافات. وإذ كانَ للقدّيس أوغسطينوس اعترافاته «الدِّينية» التي تخدم الإله ومجده، ولِجَان جاك روسو اعترافاته «الإنسانية» التي توجّه لخدمة الأناسيّ، فَلِميشيما اعترافاتهُ «الذَّاتية» التي من خلالها يسبرُ تاريخه تفسيرًا منذ الطفولة وحتى أوائل سنيّ الشباب، في انتضاءٍ لذاته إلى محلٍ من المواجهة الواعية لها في تشريفٍ من التهذيب؛ وبِذا نَعي لِما اعتبرَ ميشيما أنّ اعترافاته «تمرينٌ إسپرطي». كما أنّهُ لا يُمكننا القول أنّ هذه سيرة ذاتية (تروي ما حدث وفعلَ كاتبها)، بل صورة مجهرية للذات (فحصٌ وعرضٌ للذّات) لإعادة تشكيلها وفهمها في قالبٍ من التداعي الفِكري والروائي.



«لسنواتٍ عديدة، زعمتُ أن بمقدوري تذكّر أمور تراءت لي وقت مولدي».

وإن كانَ موضع الزعم مربكًا، إلّا وهكذا تبدأ الاعترافات في حُلّةٍ تتشبه بروح جلجامش «هو الذي رأى كل شيء» والمقصد من حيث استجلاءِ الماضي واستيضاحه وسبر الذّات على رويّةٍ من حصافةِ الفهم، والتلميحُ بأنّه على درايةٍ تامّة كيف يراقب نفسه. على هذا النحو يصحبنا ميشيما لدهمةِ خَلَده، مستجلبًا تاريخه، راويًا نفسه، محللًا ذاته، فاهمًا ومستفهمًا لرغباته عبر ممرّات يقظته الجنسية التي هي ركيزةُ الاعترافات، ممّا يُؤهّل «اعترافات قناع» أن تصلحَ لدراسةٍ في طبيعة الرغبة ومبحثٍ في الذّكورة. يختلجُ مسرح الاعترافات الصّراع بين الضّمير الاجتماعيّ والرّغبة الشخصية، توليفةٌ حَرِجة من الواقع واليقظة، عبر سردٍ معقّد في صميمه، وفراسةٌ من الإضاءات المعذّبة والنّفعة التي يسطّرها عرّاب الأحجية البلاغية ميشيما. على مسرحِ الإمبراطورية اليابانية في الحرب العالمية الثانية يسجّلُ ميشيما إشكاليّة حياته الجنسية، ألا وهي الميل الجنسي لذات جنسه (المثليّة). ولكن في أخبَاره عن مثليّته لَم تكن المقاصد لتبريرها وشَرعنتها كما يحدث في العالم المعاصر. بَل لمحاربتها، مُحاربة رغباته المنحرفة وتقويم ذاته في سبيل السواء. يسعى ميشيما لفهمِ مكانه في العالم، ريّضًا في تحبير الحدود الصارمة في وضوحها بين الخداع الذاتي والواقع المفجع، أي بين القناع والمجتمع، وما يتطلّبه ذلك من جُهدِ التخلّص من فكرة أنّ وجوده يعتمدُ على خياله الخاص ورغباته دونما الاعتبار لروحِ المجتمع وأعرافه، وفي هذا نداءٌ لروح الفلسفة الإغريقية القديمة المتمثّلة في «الكوسموس» أي النظام الكوني لنيل الحياة الطيبة، فتبدو الاعترافات على غرار قصة «هِزيود: أصلُ الآلهة»: الانتقالُ من الفوضى إلى الكوسموس. وهذا هو ما يُميّز اعترافاته التي تُعدّ تمرينًا إسپرطيًا لمواجهة الانتكاسة الذّاتية.

«تُرى أي شعورٍ ينتابني لو كنتُ فتًى آخر؟ أي إحساسٍ يخالجني إذا كنتُ شخصًا عاديًا؟».

من ألق المأساة في هذا التساؤل، يشرعُ ميشيما إلى تفحّص الأسباب في بونِ ميله الجنسي عن ميل الفتية، يحدجُ نفسه كمُحلّلٍ متمرّس لينتحل القوامة؛ «فسّرتُ هذا الانحراف لنفسي على أنه يرجعُ ببساطةٍ إلى تكاسلي «بحيلةٍ مُنمذَجة، فإلى الكسل يعزو ميشيما مِثليته الجنسية والسادية والمازوخية التي تشكّلت ضمن يقظته المنحرفة - ومن لطيف الذِّكر أن ميشيما أطلقَ على أحلام اليقظة هذه، مُعرِّفًا رشيداً بـ «الحدث اللاأخلاقي» لِما لها من نتائجٍ بائرة على مسيرة المرء. للقضاءِ على هذا الكسل وُجبَ عليه استشراف النشاط والسّعي لـ «تملّك ناصية العادية» من حيث الإقبال على حياة الجنس الآخر. ومن وراء هذا التفسير مقصدٌ مُبرّر لكلمة «قناع» التي استخدمها كعنوانٍ لاعترافاته، ومِن ثمّ فلسفةٌ للحياة وسط المجتمع بما يتطلّبه من لياقةٍ مكلّلة بالاحترام للتقاليد والأعراف، مقلّدًا إياها المعيار الأساسي لتهذيب نفسه. يصرّح ميشيما إدراكه منذ الطفولة ماذا يعني «الشعور المرتكس بالواجب الاجتماعي»، وعليه يهرعُ لتوطيد مفهوم خاص عن الحياة بكونها «مسرح» وهي فكرة رواقية سبقَ وطرحها إبكتيتوس في تعاليمه لمُجالدة الحياة والانتظام فيها، كما تغنَّى بها شكسبير. الممثّل المسرحي يتطلّب وجود قناع يسعى بواسطته إلى إقناع الجمهور بالدور المنوّط به على خشبة المسرح. القناعُ كانَ إسقالةَ ميشيما لمنهجةِ نفسه، إلّا أنَّ ذاك مَني بالكثير من الألم على روحه حتّى أنه نصّب الموت «هدفه الحقيقي في الحياة»، فبالموت تنتهي المسرحية ويتخلّص من عبء هذا القناع، فكانَ يربّي في نفسه توقّعًا بأنّ مصرعه في انتظاره في القريب العاجل مع ما يحدث في بلده خلال الحرب، إلّا أنّ السلام قد حلّ وهباءً أدبرت أمانيه بمعانقة مصرعه في خدمته العسكرية في الحرب. لكنّ إصراره المعذّب والمهذّب الصريح والجدير بالإعجاب بأن يتملّك «ناصية العادية» ما أثناه عن تحمّل عبء القناع، وليس من مسلكٍ أمامه سوى التجالد على انحراف ذاته وسط مجتمعه، فتراهُ يقول: «وحيث أنّ لحظة نزول السِّتار لَم تكن بعيدة كثيرًا، فلربما من المتوقّع أنْ أُسَخِّر بمزيد من الاجتهاد القناع الذي اخترته لنفسي» ممّا يعني أنّ القناع له وظيفته الشريفة، ومن خلاله يُستنبَط تمرينٌ نبيه ينطوي على معانٍ كريمة في النِّضال لتحقيق التوازن.

فـي المجتمـع المُعاصـر ولـو كانَ أمرَ القنـاع يوصـمُ بالنِّفـاق، فـإنّ الأقنعـة هـي حصنُ المرء مـن التدهـور والتساقُل بما تفرضه علينـا مـن استشرافاتٍ لنواصـي الأخـلاق فـي ظـلّ عصـرٍ متحلّـل غيـر أميـنٍ علـى حسـن السـلوك والصـلاح. وذا المنهـج مـا قـد ذرّأ عـن ميشـيما سـوء المنعطفـات الخطّـاءة ممـا حصرَ ميلـه فـي مُجـرد يقظـة جنسـية لَـم يسـنحَ لهـا فـي التسـرّب إلـى التطبيـق فـي واقعـه، ولـو أنـهُ قـد قيـل مـن الشـائعات أنّ لميشـيما زيـارات إلـى محافـل جنسـية مثليـة، فظهوره اللائـق فـي المجتمـع رغـم مثليتـه أو كويريتـه، أيضًـا مزيّـة تتقلّـد أشـرف المعانـي مـن أي زوايـا أخـرى.

«أقسمتُ أنْ أقومَ بدوري بإخلاص».

لـدى ميشـيما قناعـة راسـخة - مـن خـلال سـرده فـي اعترافاتـه - بأنـه مجـرّد موظـف فـي مؤسسـة جسـده، وعليـه أن يديـره ويتعامـل معـه ومـا يواكـب لياقـة المجتمـع. مـا يطرحـهُ هنـا هـو درسٌ عـن تهيّب النفـس وحُسـن إدارتهـا بمـا لا يسـنحُ لرغباتهـا أن تُشـاكل الاسـتقامة أو تصرفهـا الأفعـال المتأوّلـةُ علـى أشـنع مسـالكها عـن الاعتـدال. وكأنّ ميشـيما بهـذا يُخبرنـا بـأنّ الكـون يفضّـل أن يبكـي علـى أن يلبّـي مطامـع الخلاعـة والخطايـا.

مـن مُراهنتـه علـى النِّضـال الهـادف، يقـدّم ميشـيما صـورةً بانوراميـة لرؤيـة الـذات ورغباتهـا فـي العصـر الحديـث، وكيـف تحليلهـا مـع أشـرف الاعتبـارات للمجتمـع ومـا علينـا مـن حـسّ المسـؤولية تجاهـه.

عندمـا نتحـدّث عـن المثليـة الجنسـية أو طيـف مجتمـع الـ QTBGL اليوم فنحـنُ لا نتحـدّث عـن هويّـات، بـل عن التـزامٍ سياسـي تقدُّمـي، والقميـنُ بالذّكـر فيمـا يخـصّ اعترافـات ميشـيما التـي يعتبرهـا الطيـفُ المِثلـي والكويـري مصـدرٌ لفهـم معاناتهـم، أنّ ميشـيما يبيـتُ بعيـدًا عـن هـذه الأذهـان إذ يعـدّ المثليـة وهـذه الميـول جـزءًا مـن الانحـراف وبواعـث الاشـمئزاز التـي لاحقتـه بشـعورٍ سـاحق بالعـار، وعلـى أنَّ اعترافاتـه مشـفوفة بهـذا الميـل، إلّا أنّـه مـا سـرّحه دونمـا يقشـبه ضبطًـا، ولَـم يُبـرّره برغـم قراءتـه النظريـات العلميـة الجنسـية للعالـم اليهـودي «هيرشـفيلد» المشـهور بانحـراف أبحاثـه فـي القـرن العشـرين، و ذَا مقصـدٌ سياسـي واجتماعـيّ حصيـف؛ تـراه يقـول فـي الاعترافـات بعـد أن قـرأ نظريـات هيرشـفيلد عـن أن المثليـة نتيجـة طبيعيـة ولا تسـتدعي الشـعور بالعـار:

«[...] لكـن ذلـك لا يعنـي أن حياتـي العاطفيـة قـد اسـتقامت مـن خـلال الاسـتيعاب الفكـري لهـذه النظريـات. كان مـن العسـير أن يصبـحَ اللـواط واقعًـا فـي حالتـي... ولـم يكـن يتجـاوز كونـه دافعًـا مظلمًـا، يصـرخ عبثًـا، مكافحًـا فـي عجـزٍ وعمـاء».

المُلاحَـظ مـن هـذا، أنّ الـذي اعتـزمَ أن يحـذو الانضبـاط الإسـپرطي فـي مسـيرته لا يقـرُّ بأنـه علـى الإمـكان مـن أن يُعبِّـد الطريـق لـ«باخـوس إلـه الخـراب».

المعـروف عـن ميشـيما أنـه ارتبـطَ بامـرأةٍ فاضلـة، وكـوّن أسـرة سـليمة القيـم فـي المجتمـع اليابانـي، برغـم مثليتـه، ولعـل ذلـك يرجـعُ إلـى تجـذّر الفكـر الأخلاقـي للكونفوشيوسـية وفلسـفة السـاموراي، واحتـرام التسلسـل الهرمـي الاجتماعـي فـي اليابـان، وذا يختلـفُ بشـدة عـن الفرديـة الغربيـة التـي نراهـا اليـوم تُشـرعنُ الأهـواء وتبرّرهـا تحـت أيديولوجيـة حقـوق الإنسـان والحرّيـات المطلقـة فنشـهدُ علـى أوضارهـا مذبحًـا للفضائـل ممـا جعلنـا علـى ملامسـةٍ وكيـدة لـ «اضطـراب الأخلاقـي والاجتماعـي الـذي يركـضُ فيه الوالـدان المذعـوران عائديـن إلى الكنيسـة الأم، يتوسّـلون إليهـا أن تُهـذِّب أطفالهـم مهمـا كانـت التكاليـف التـي سـتتحمّلها الحريـة الفِكريـة.» [ديورانـت، دروس التاريـخ].

هنـا تمامًـا يفشـلُ اليسـار فـي اسـتخدام ميشـيما كواجهـة لتسـويق الميـل المهلهـل مـن الابتـذال النفسـي والوجـودي، خاصـةً وأنّ المثليـة اليوم هـي ديـنٌ تقدّمـي بامتيـاز، وميشـيما لـم يكـن تقدّميًـا، بـل علـى النقيـض مـن التيـار اليسـاري، ولـذا يُفهـم ميـل شـبّان اليميـن نحـوه وأفـكاره. فنخبـةُ تجـارب ميشـيما تنـأى عـن قبيـح السـيرة التـي يتزيّـن بهـا لوبـي الأيديولوجيـة المثليـة ومـا يـروّج لـه مـن سُـفهٍ تحـت رائـق المسـمّيات.

فـي حـال أردنـا الاعتـدال فـي مذهـبِ الحيـاة نقـولُ أنّ المثليـة ومثيلاتهـا إنْ اقتصـرت علـى الميـل الفـردي الشـخصي والخـاص، فعـلّ ذلـك يكـون مفهومـاً كمـا كانَ فـي سـالف التاريـخ مـن هـذه الظاهـرة التـي لـم تخبرهـا العصـور الماضيـة بمـا يستفشـي الطاعـون الأخلاقـي فـي المجتمـع.

ولكـنّ الأمـر اليـوم يتجـاوز ذلـك إلـى حـدٍّ مـن الأيديولوجيـة التبشـيرية، فسـدوم وعمـورة لَـم تعـد منعزلـة، بـل توّجـت علّاتهـا بالطبيعـة الحـقّ والدِّيـن الـذي يجـب أن يُبشَّـر بـه، أي أنّ المثليـة اليـوم حالـت بينهـا وبيـن كونهـا مسـألة شـخصية، فتجـاوزت ذلـك

إلى النّضال ليُعترف بها كجزء أساسي من هويّة المجتمع. هذا الخلط الساحق بين الأمر الشخصي وهوية المجتمع هو ما يبلغُ عنه أشدّ صور الاضمحلال التي تُصيبُ المجتمع، فيغدو كل هوىً شخصي تمثيلٌ لهوية مجتمعاتنا، وبِذا تُستنزف أعمدة الحضارة بلا مغنمٍ إلّا في سياق الفوضى.

بتجاسرٍ على الإسقاط، يُمكننا إسقاطَ قصّة «مصرع جان كالاس» على ما يتقلّده النشاط المثلي الجنسي اليوم، والذي لا تخفى تمظهراته عن العيان (وعلينا بالتذكير أنّ هذا ليس من الحقوق في شيء، بل دين سياسي تقدّمي). وهي روايةٌ حقيقية حدثت عام ٢٦٧١م، ورواها ڤولتير. قطبان هما أسّ الحكاية والإسقاط، فجان كالاس نصوّره بالمجتمع السّوي، وأهل تولوز لأشبه بطيف الأيديولوجية المثلية من التَّمرةِ بالتَّمرة. يُعدم جان كالاس وتُشرّد أسرته وذلك عن إجماعٍ من أهل تولوز بقذف جريم تهمةٍ مقبّحة باهتة من الدلائل البيّنة بأن جان كالاس البروتستانتي أقدمَ على شنق ابنه (الذي مات منتحرًا في الأصل) كراهيةً في الدين الكاثوليكي، في ادّعاءٍ بأنّ ابن جان كالاس كان سيرتد عن البروتستانتية ويصيرُ إلى الكاثوليكية لولا أنّ والده جان كالاس شنقه. على اعتبارٍ مقبول لحدٍ كبير بتصوير المثلية أنها دينٌ تبشيري ونظام شمولي، فإنّها تُماثِلُ في ديدنها ديدن أهل تولوز المتعصّبين لدينهم، السّاعون لبليّة التجنّي على كل من يخالفهم وتحت اسم العدالة والتحضّر.

فهُم لا يكتفون بهذا الميل لأنفسهم، بل ماضون في نشره وبرمجة السواد عليه، ومن يأبى على نفسه وأهله ومجتمعه ذلك، تراهم يتلفّعون له باسمّ الاستراتيجيات الجَمعية، فهناك من الاستراتيجية النفسية العكسية التي يستخدمونها على هذا النحو : «أنتَ تخشى المثلية وتتنمّر على أفرادها، فذلك يعني أنك تخفي مثليتك»، وهناك غيرها من الاستراتيجيات المُتجلببة بـ «التسامح، الحب، الحق، الحرية، العدالة، التعددية...إلخ». ونحنُ إذ ترانا نكيلُ لأيديولوجية المثلية، فذلك ليس إنكارًا له، فلطالما كانت موجودة في التاريخ ولكن وجودها اليوم يختلف كما أوضحنا سابقًا، ولسنا بمحدّثين عنها في الدائرة البيولوجية؛ فعلى علمٍ نحنُ بأنّ حتى النتائج للبحوثات العلمية في هذا الشأن، أصبحت في قبضة الرأي العام الذي بدوره يُوجَّه ويُخلَق من قبل أيديولوجيات سياسية تدميرية.

قُل إنما نتحدّث عنها من سياقٍ اجتماعي وأيديولوجي نشهدُ مآلاته على مسرح عالمنا وسياساتنا، وأخلاقنا وثقافاتنا.

في دهاءٍ بلاغي كالبَحرِ في بُعدِ الغور وقُرب المغترف، نخلُص إلى أنَّ ميشيما في اعترافاتهِ وتعريته لمثليته الجنسية، ينتهجُ طقوس الساموراي وجلد الإسبرطي للامتثالِ إلى مظهر مجتمعه قبل كل شيء، نُبل هذه العناية الأصيلة لثقافته ومجتمعه درسٌ فريد ووثيق يقدّمه ميشيما للأذهان، وقد جاءت خاتمة اعترافاته على انتخابٍ من حُسن التصوير الرمزي، تَشي بأنّ الانعكاسات المتألقة هي العهد بهويّة مستقرّة:



«كان الأوان قد جاء، نهضتُ واختلستُ نظرة أخرى إلى تلك المقاعد تحت الشمس، كانت المجموعة قد مضتْ فيما يبدو للرقص، والمقاعد شاغرة تحت بريق الشمس، كان نوع من الشراب منسفحًا على سطح المائدة، وكانت ترتدُّ عنه انعكاسات متألقة، مفعمة بالوعيد.»